في الأدب الجزائري

مولود معمري

كان ضائعا في « الهضبة المنسية » ثم اكتشف طريقه في « سبات العادل »

بقلم عثمان سعدي

لا اظن انه في أجزاء الوطن العربي ، بيئة ثقافية معقدة كبيئة الجزائر خاصة ، والمغرب العربي عامة ، فالحركة الادبية في الجزائر ذات ظروف لا يمكن ان يدرك خفاياها سوى الذين عاشوها ، وقد كان تطور الحركة الادبية في المشرق العربي تطورا طبيعيا ؟ أما تطورها في الجزائر فقد جاء مشوبا بشذوذ حاد .

واللغة الام ـ اذا ماأتيحت لها فرص التطور الطبيعي ـ أحاطت الحركة الادبية والفكرية برعاية تقيها شر الانحراف ، والانفصال عن الواقع الثقافي القومي ، وهي اذا ماكانت في متناول يد أبنائها ، تمكنوا من عكس واقع اوطانهم بحيث لا يشوب التعبير عن شخصيتهم القومية في كتاباتهم ، بشكل طبيعي ، اي تزييف للواقع ، او انحراف بالتعبير عن هذه الشخصية . ولا أظن ان انسانا يدرك المعنى العميق للعبارة المأثورة : « الناس يفكرون باللغة » ادراك الانسان العربي ـ في الجزائر ـ لها لان التجارب التي مرت عليه جعلته يعاني الكثير من مشكلة اللغة . وعقبرية اللغة تكمن في سيطرتها ، بطريقة لاشعورية ، على شخصية الكاتب ، وتأثيرها تأثيرا جذريا في طريقة تفكيره .

وأرى ان الفرق بين الواقع الثقافي في المشرق العربي ، وبينه في المغرب العربي ، يعود الى طبيعة الاحتلال التي مني بها كل منهما . فنوعية الشخصية الانجليزية التي سيطرت على المشرق ، تختلف عن نوعية الشخصية الفرنسية ، التي سيطرت على المغرب .فشخصية الانجليزي محافظة ، بسيطة ، ومغلقة ، ركزت في استعمارها على جانبه الاقتصاي ـ الاستغلالي ، فالانجليزي لا يهمه كثيرا نشر لغته في البلدان التي تقع تحت نفوذ استعماره ، وخاصة اذا كانت لغة هذه البلدان لغة نامية ، تملك من القوة التعبيرية مايجعلها تقف الى جانب اللغات الحديثة . فعندما دخل الانجليزي القارة الهندية مثلا ، وجد هناك عشرات من اللغات ، كلها قاصرة عن ان تقف على قدميها ، وتساير حركة التطور المتقدمة بسرعة، فلم يجد بدا من اعتبار اللغة الانجليزية بين الهنود لغة رسمية ، وكذلك فعل بالنسبة لشعوب افريقيا ، التي تنتشر بينها لغات بدائية بسيطة ، لايتجاوز استعمالها العلاقات الشفوية المحدودة بين المواطنين . اما في المشرق العربي فقد وجد الانجليزي لغة مكتوبة ، لها من الوسائل التعبيرية ما يجعلها تساير حركة التطور العلمي والفكري ، فنشر لغته لانه كان في حاجة الى طبقة من المثقفين تتجاوب مع احتلاله ، ويحكم بواسطتها البلاد، وترك الحرية المطلقة امام المواطنين ، في تطوير لغتهم ونشرها . واتيحت الفرصة امام الكاتب للتعبير عن ارائه بلغة البلاد ، وليس معنى هذا ان الاستعمار الانجليزي،لا يخلف رواسب فكرية وثقافية في البلاد التي مر بها ، ولكن رواسبه اخف وطأة من الرواسب التي يخلفها زميله الفرنسي .

اما شخصية الفرنسي ، فالمراحل التاريخية ، والهزات الثورية ـ الانقلابية ـ الحربية ، التي مرت عليها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، جعلت منها شخصية معقدة ، معتدة بنفسها الى درجة الغرور . فالفرنسي يؤمن بان حضارته احسن الحضارات ، ولغته اجمل اللغات ، وقوميته أسمى القوميات ؟ وان الله ارسله الى هذا الكون أستاذا ليثقف الناس ، وينقذهم من البدائية والفوضى ، وهذه الرسالة في رأيه ، لايمكن تحقيقها الا بنشر لغته ، وحضارته ، وثقافته ، وتاريخه ، بين سكان البلدان التي استعمرها ؟ مع القضاء على لغتهم وثقافتهم ، متجاهلا الحقيقة التاريخية الواضحة ، وهي ان كل شعب يخضع لتقاليد ثقافية وفكرية ، تختلف اختلافا جوهريا عن التقاليد التي يخضع لها شعب اخر. والمدرس الفرنسي ، لايمكن له ابدا ان يجعل من المواطن العربي او الافريقي ، نسخة طبق الاصل للمواطن الفرنسي ، مهما اتخذ من وسائل، وان كان في استطاعته ان يجعل منه « مسخا مشوها » معلقا ، مذبذبا ، بين معالم الشخصية الفرنسية ، ومعالم شخصيته الوطنية . والمثقفون الواعون في اقطار الاستعمار الفرنسي ، يدركون هذه الحقيقة . يقول الزعيم الغيني العبقري سيكوتوري : « لقد بلغت براعة الاستعمار ، في تحطيم شخصيتنا القومية حدا كبيرا ، بحيث انه وصل الى تشويه مواقفنا النفسية العفوية ، وجعل بعضنا ينظر بعين الازدراء الى قيمنا ، وتراثنا وميزاتنا الاصلية ، وشمائلنا الخاصة « (مجلة المجاهد عدد ٥٧).

ويذكرني قول سيكوتوري ، ببعض تلاميذ المدارس الفرنسية بالقاهرة الذين اتيحت لي فرصة التعرف اليهم قبل سنوات . فقد كانوا يحتقرون الشخصية العربية وثقافتها ، ويجهلون جهلا تاما كل مقوماتها ، بالرغم من ان البيئة الثقافية العربية التي تحيط بهم ، كانت راقية جدا . ولن أنسى أبدا تلك الفتاة التي قالت لي مرة في نادي كلية الاداب ،بفرنسيتها الركيكة : « ما أسعدكم ايها الجزائريون ، انكم تتمتعون بالجنسية الفرنسية » .. والمدرسة الفرنسية بالمستعمرات توحي ايحاء غريبا ، وتسيطر سيطرة لاشعورية على خريجها ، بحيث يصير الكثيرون منهم ، يؤمنون بان التقدم والتطور والحضارة الاصيلة مرتبطة باللغة الفرنسية ، ويعبر سيكوتوري عن هذا بقوله : « وقد وصل الاستعمار بهذه الطريقة الى التأثير على المثقفين الافريقيين ، الذين يذهب بعضهم الى حد الاعتقاد ، بان الوسيلة الوحيدة للحصول على العلوم الحديثة ، تتمثل في التنكر للقيم الاخلاقية ، والفكرية

> انه ضال ، وسيعود يوما ، وسوف ترى ، عندما يعود الضالون ، أنهم أنقى من الذين لم يتيهوا أبدا .
> لانهم كانوا أكثر تمزقا .
> « سبات العادل (ص٧٤) »

والثقافية لامتهم ، من اجل القدرة على استيعاب وهضم الثقافة الاجنبية، التي لا يفرقون بين جوانبها القومية، بين العلوم الكونية العامة» (المجاهد عدد ٥٧) .

وقبل سنوات قرأت مقالا لكاتب جزائري له قيمته في الاوساط الادبية في مجلة « فرانس ابسرفاتور » ، يرمي فيه اللغة العربية بالعقم ويعتبرها لغة ميتة ، ويفضل ان تبقى اللغة الفرنسية منتشرة في الجزائر بعد الاستقلال .

دخل الفرنسيون الجزائر سنة ١٨٣٠ ، فوجدوا اللغة العربية هناك في حالة من الجمود ، مرتبطة بالفترة التاريخية المظلمة التي كانت تمر بها البلاد العربية في ذلك الوقت . وما ان تمركزوا في الجزائر ، حتى بدأوا يخططون لفرنسة الجزائر ، فرنسة كاملة . فقضوا على المدارس والمعاهد التي كانت تعلم اللغة العربية وادابها ، وحصروا تعليم اللغة العربية ، في اضرحة مشائخ الطرق بوسائل بدائية عقيمة ، وحاربوا كل حركة تستهدف رفع مستوى التعليم العربي ، ثم راحوا يفتحون المدارس الحديثة ، ويجعلون برامجها نسخة طبق الاصل للمدارس المنتشرة في فرنسا .

ولم تكد تمضي سنوات حتى بدأت الصحف الفرنسية تظهر ، وتكون لها طبقة من القراء ، ويقابلها في خط مواز تناقص مطرد لطبقة قراء العربية .

وببداية القرن العشرين ، صار لطبقة قراء الفرنسية وزنها ، واصبح للغة الفرنسية نوع من السيطرة على البيئة الثقافية في الجزائر . ولم تكد تمضي الثلاثة العقود الاولى من القرن العشرين ، حتى صار خروج الثقافة الفرنسية من دائرة الموظفين في الادارات الفرنسية واضحا ، وامتد انتشارها الى ابناء الشعب العاديين . واصبحت حاجة هذه الطبقة الى كتاب يعبرون عن طريقة تفكيرها ، ويعكسون الواقع الجزائري المحيط بها ، ضرورية ، بعد ان عدمت هذه المعاني في الكتب الواردة من فرنسا .

ولم تكد تنتهي الحرب العالمية الثانية ، حتى برز كتاب جزائريون فجاة ، يؤلفون اعمالا ادبية ، لاتقل روعة عن الاعمال الادبية للكتاب الفرنسيين الكبار ، فظهر محمد ديب ، ومعمري ، وياسين ، وفرعون ، واسيا جبار ، وغيرهم . وقد حاول هؤلاء الكتاب ، الاخلاص للواقع الجزائري ، الا ان عبقرية اللغة التي يكتبون بها كانت تخونهم احيانا ، بسبب انفصالهم عن الثقافة الوطنية . فالمدرسة التي تعلموا فيها ، منفصلة انفصالا تاما عن البيئة الاجتماعية للبلاد ، ولغة الثقافة لاتمت باية صلة الى اللغة المتداولة بين الناس البسطاء .

يبدأ الطفل الجزائري يحس ببعده عن جو البيت ، كلما تقدمت به سنوات الدراسة ، وقد نتج عن هذا التناقض بين البيت والمدرسة ، نوع من التمزق في نفسية هذا الطفل ، فهو يعيش بشخصيتين متناقضتين : يذهب الى البيت ، فيضطر الى تقمص شخصيتها ، لمخاطبة أمه واخواته الاميات باللغة التي يفهمنها . ويدخل المدرسة فيتقمص شخصية اخرى ليخاطب مدرسيه الفرنسيين بلغتهم . وما ان يشب هذا الطفل حتى ، يكون لنفسه عالما بعيدا عن المجتمع ، وتصبح لغة الام عنده مقصورة على علاقاته المحدودة بافراد اسرته الاميين . فهو يتحدث بلغة الام في المسائل المباشرة البسيطة ، اما اذا اراد التعبير عن مشاكل سياسية او اجتماعية او فكرية ، فانه يضطر الى استعمال اللغة الفرنسية . ونتج عن انفصال المدرسة عن البيت ، افقار مريع للغة العربية المتداولة بين الناس في الجزائر . فمعظم كلمات معجم هذه اللغة ، عبارة عن كلمات فرنسية مكسرة .

والكاتب ، الذي يكتب باللغة الفرنسية ، يجد نفسه مضطرا الى ان يلتقط الواقع من الخارج ، ويسجل احداثه تسجيلا شكليا في بعض الاحيان ، دون ان يتغلغل الى اعماقه . ويجد نفسه اقدر على ترجمة مشاعر نماذجه من التعبير عنها .. وفي كثير من الحالات نحس ان الكاتب يريد ان يعبر عن نماذجه ، الا ان لغته تخونه ، ونشعر بتمزقه ، وهو يحاول ابراز احساساته بالواقع الى حيز الوجود ، فتخونه وسيلة التعبير .

ولم يقتصر الانفصال بين اللغة المعبرة ، والواقع المعبر عنه ، على عجز لغة الكاتب عن التعبير عن نماذجه فحسب ، بل امتد تأثير هذا الانفصال الى ايديولوجية الكاتب . فايديولوجية محمد ديب أممية ، لم تخرج دائرتها عن طبقة واحدة في المجتمع الجزائري ، وهي طبقة العمال، في حين ان الظرف التاريخي الذي عاشه المجتمع الجزائري ابان كتابة هذه الاعمال ـ لم تكن مشكلة طبقية : طبقة تستغل طبقة او طبقات اخرى ، وانما كانت مشكلته احتلالا اجنبيا يستغل المجتمع الجزائري بمختلف طبقاته . وطبقة العمال في الجزائر التي قصر الديب اعماله عليها ضئيلة ، لان الكادحين هناك هم الفلاحون ، وليسوا العمال . اذا فالديب عندما يكتب اعماله الرائعة ، يكتبها وهو متأثر بنوع من الثقافة الماركسية ، التي نبعت من ظروف اوروبا الصناعية المتقدمة ، في حين ان تأثره بظروف الجزائر كبلد زراعي مستعمر كان اقل .

اما كاتبنا الذي نتناوله في دراستنا هذه فانه يمثل ايديولوجية اخرى ، وهي « الاقليمية بمفهومها الضيق » اي اقليمية المنطقة التي ولد بها الكاتب ، وهذه الاقليمية تبدو واضحة في روايته « الهضبة المنسية » .

والهضبة المنسية (١) : رواية نشرت سنة ١٩٥٢ ، وأحاطتها المجلات الادبية الفرنسية بهالة واسعة من الاعجاب . وهي كعمل فني ممتازة ، وخاصة اذا ماعلمنا انها اول عمل لمؤلفها ، فبناؤها متماسك ، وأسلوبها جميل وجزل ، تمازجه روح شاعرية ساحرة ، وخاصة في وصفه لطبيعة جبال زواوة الخلابة ، والتعبير عن شخصياته من الداخل .

تروي الرواية حياة شاب (مقران) من عائلة « ايت شعلال » ، بقرية « تازغا » وسط جبال زواوة ، فهو يشب بين رفاقه رابح ، وايدر ، وعلي ، ومناش ، وقريبته يتخذون غرفة منعزلة بمنزل مقران ـ اطلقوا عليها اسم « تاعساست » ـ مكانا ، لسمرهم يتجاذبون فيها اطراف الحديث ، وينعمون بفناء كو ، ومحفوظاتها من الزجل الشعبي القبائلي ، ويفرق الدهر بين الاصدقاء ، فيذهب كل واحد منهم يسعى وراء قسمته .. ويضطر مقران لاغلاق «تاعساست» واتخاذها مركزا لذكريات جميلة عزيزة ، او صدت عليها الابواب ، وحلت محلها حياة تتجاذبها تيارات متناقضة ، ويتخللها خليط من القلق ، والرتابة ، والملل . وتبدأ هذه الحياة مع اعلان الحرب العالمية الثانية . ونلاحظ مقران بطل الرواية وهو يتحرك في محور قريته غامضا لايكاد يبين له احساس .

وتنصب اول ملاحظة لنا على خطبته لنا معزوزت ، وتقع هذه الخطبة فجاة ، فمقران لم تخطر له على بال فكرة الزواج من هذه الفتاة من قبل ، وحتى رفاق « تاعساست » دهشوا عندما سمعوا بها . يرجع

---

(١) La colline oubliée (plon)

مقران من مدرسته لقضاء العطلة فيشاهد (اعزي ١ ناعساست) خطيبة المساء .. وابنة الارملة العجوز « لثماس » ، وقد اصبحت فتاة ناضجة صالحة للزواج » . ويتكون نوع من الالفة بين مقران وآعـزي في تلك السنة التي اضطره المرض اثناءها ان يبقى في القرية : « كانت هي الوحيدة من رفاقي التي بقيت في نازغا ، تعودنا ان نجتمع في الغرفة العلوية لمنزلنا ، ومن هنا كنا نشـرف على كـل نازغا ، فحتى المئذنـة بارتفاعها لم تكن اعلى منا . وعندما ندخل كانت تواجهنا قمة ايراتـن الطويلة ، مع مخروط ضريح ايخريدن الحاد ، اما من الشرق فكان الجبل مع فج كاولال ، ومن الغرب قرية آورير ، وخلفنا المسجد الذي كانـت مئذنته تحجب عنا جزءا من الجبل . كان حصيننا يبدو من اية نقطـة في تازغا فارعا يطاول السماء ، مسيطرا على بيوت القرية المنحفظة ، كراع وسط قطيع . ومن اجل هذا عمدناها بتسميتنا تاعساست » .

وتعلن الخطبة ثم الزواج ، دون ان يكشف لنا مقران عن لون العاطفة التي يحملها لاعزي . شيء واحد نفهمه هو ان الصدفة لعبت دورهـا ، وان مقران انسان سلبي في علاقاته مع الناس ، لايملك قوة الاختيار ، كانسان ضائع في متاهات صحراء قاحلة مملة ، يتشبث باي خيط يبقيه مرتبطا بالحياة ، ولو كان هذا الخيط واهيا . كان مقران يعامل زوجتـه ببرود ، حتى في الايام الاولى لزواجه عندما كان يخرج معها الى بساتين الزيتون ، متعللا بجني الغلة ، وهو في الحقيقة يريد التنزه مع عروسه ، لم يكشف لنا عن حرارة في علاقته بها ، وحتى كلمة الحب التي كثيـرا ماتتردد في محاورات العروسين ، لم نلحظها سوى مرة واحدة ، بمناسبة تذكره لاصدقائه الذين انقطع عن لقائهم منذ زواجه ، لقد قالها ، عرضا ، في عبارة مقتضبة « الحب أناني » .

كان قلق مقران يتضح لنا ، وغموضه يتكشف امامنا ، كلما تقدمـت بنا احداث الرواية ، فهو رجل مستقيم في سلوكه ، الا انه يقف سلبيـا امام علاقة صديقيه : مناش وموح الشاذة ، ففي المـرة الاولـى التـي يلحظهما يقول : « مكثت مسمرا ، متحجرا ،مندهشا ، اكثر مني ساخطا .. .ايمكن ان يكون مناش قد انحط الى هذه الدرجة ؟ » ويصمم فـي لحظة عابرة على محادثة صديقه ، واتخاذ موقف شديد معه ، الا انـه يعود الى سلبيته عندما يخبره مناش بان حبه لموح حب افلاطوني ... ان سكوت مقران عن هذه العلاقة الشاذة ، لا يبررها سـوى سلبيته، وغموضه ، ولا مبالاته . فظروف بيئته ومنطقها السلوكي الاجتماعـي ، وحقيقة واقعها ، كلها تجعلنا نرى ان هذه الحادثة ، دخيلة على مجـرى الرواية ، وليس لها أي انسجام مع بنائها ، اللهم الا اذا اراد الكاتـب ان يوضح لنا من خلالها ، سلبية مقران وتعقيد مناش . وحتى لو كان هذا فان الكاتب غير عاجز عن استخدام حوادث اخرى لتبيان ذلك.

ويتقدم بنا مجرى الرواية ، وتزداد سلبية مقران ولا مبالاته وضوحا : في الجيش الفرنسي عندما يحس بانه مظلوم يكتفي بانسحابه ، الـى خميته ليلا انسحاب اخيل ، والقيام بعمله نهارا . وبدل ان يقوم بـرد فعل يكشف لنا من خلاله عن الظلم الذي يتعرض له الجزائري فـي الجيش الفرنسي ، والعقبات التي كانت توضع امامه ، وأسباب ذلك كله يكتفي بارجاع هذا الغبن ، الى ملازم لايستسيغ ان يرى نائبه يقبـل على قراءة الكتب ، والى سكرتير ينسى تقريره وسط قصة بوليسية .

وتمر ثلاث سنوات كاملة على زواجه ، دون ان تنجب له آعزي مولودا، ويبدأ التذمر يصدر عن امه ، ثم عن أبيه ، اللذين يبديان رغبتهما فـي تطليقها ، وتخبره آعزي برغبة ابويه في رسالة تصله وهو في الجيش ، وتنتظر ان يحدد مقران موقفه ازاء هذه المشكلة الخطيرة التي تثار لاول مرة في حياته ولكنه يلتقي بهذا التعليق : « وتأسفت لانني لم اذهـب الى تازغا ، وقضاء عطلة عيد المولد هناك ، وضاعت مني فرصة رؤيـة المسالة بعيني ، بدل ان اعرفها بواسطة كتابة آعزي الغامضة » ص ٧١. كنا ننتظر من مقران ـ وهو الشاب المتعلم ـ ان يقوم بعمل ايجابي ، كان يعرض زوجته على طبيب مختص ، ليظهر له سبب عدم انجاب زوجته ، بل وتذهب به سلبيته ولا مبالاته ، بحيث يصدق الخرافات ، فيصحب زوجتهوداقدا العاقر الجميلة ، الى ضريح سيدي عبد الرحمن ، ويراقبهما وهما تشاركان في شطحات الطرقية ، وتضرعان الى « ولي الله الصالح » ان يحل عقدتيهمـا ...

وهذه الحرب التي خاض غمارها ، كان بامكانه ان يحدد موقفه منها ، لكنه يكتفي بسرد احداث فردية عنها ، والتعرض لشكليات سطحيـة ، كالفرق بين الوضع المادي للجيش الفرنسي ، والجيش الامريكي .

وقد نلاحظ ، أحيانا ، بعض مواقف ايجابية لمقران ، كقوله تعليقا على دعاء عجوز الضريح : « ما الفائدة من حب احدنا للاخر ، اذا كنـا نحن النهاية ، النهاية البائسة لحبنا ، يالهذه المرأة التي سحبت من قلبهـا العجوز هذا التخمين » وحتى بعض هذا التعليق ، الذي يدل عـلى ان صاحبه ادرك مشكلته مع زوجته ، فان مقران لايتخذ موقفا ايضا ، ولا يبين لنا لماذا لم يتخذ موقفا ، وانما يترك حل هذه المشكلة للصـدف

(١) الاسم الصغير لنا معزوزت هو آعزي.

ولقـرار أبويـه .

ويأتي القرار ، وهو في الفترة الثانية من حياته ، التي قضاها فـي الجندية ، وتخبره آعزي ، بهذا القرار في رسالة مؤثرة ببساطتهـا وسذاجة كاتبتها وبراءتها وكنا ننتظر من مقران ان يثور ، او يبدي تذمره وهو الشاب المتعلم ـ من تدخل والديه في أدق نقطة بحياته . الاانـه لايفعل ، ويفهمنا بسلوكه ان كان يحبذ الانفصال لانه لم يكن يحبها ، كما صرحت له بذلك آعزي نفسها ..

واخيرا يأتي موقف مقران ، فيودي بحياته ، على أثر رسالة آعـزي التي تكشف له فيها عن حبها ، وعن اخلاصها له ، وتصميمها على عـدم الزواج من غيره ، وعن بقاء خمسة اشهر على انجابها لاول واخر ولد منه، على اثر هذه الرسالة يتحرك ضمير مقران ، فآعزي لازالت تحبه ، وهي لم تعد زوجته ، بالرغم من ان سبب الطلاق تلاشى وهو عدم انجابهـا للاطفال . وتستثير هذه اللحظة ذاكرته ، فتعود به الى اول يوم مال فيه لاعزي ، ليحل لنا « لغز وصف » أطلقه عليها في اول القصة : « خطيبة المساء » ، ويسرد مقران هذه الذكرى في خمس صفحات ، يوضح فيها بساطة آعزي الحالمة ، وسذاجتها الشاعرية ، ومرحها الذي يشبه مـرح الاطفال في براءتهم وعدم تعقيدهم . ورجوع مقران بنا الى هذه الذكرى في هذه اللحظة بالذات ، يضع امامنا الصفات ، التي كانت خافية حتى على مقران نفسه ، والتي جذبت اهتمامه نحو آعزي . .

ويقرر مقران ان يذهب ، في احدى اجازاته ، الى تازغا لرؤية مطلقته التي اشتد شوقه لها . ويخرج من مدينة « مايو » مع رفاقه ، متجهـا الى قريته . لكن العواصف الثلجية تعترضهم ، يصبح الوصول الـى تازغا مستحيلا ، بسبب الانهيارات التي احدثها ذوبان الثلوج في الجبل. فيقررون الرجوع ، لكن مقران يصمم على الاستمرار في السير متحديـا الاخطار ، فيمنعه اصدقاؤه بالقوة . وتحاصرهم الانهيارات فتعجـز سيارتهم حتى على العودة الى « مايو » ، ويضطرون الى قضاء تلـك الليلة في السيارة . ويتسلل مقران تحت جنح الليل ، دون ان يشعـر به رفاقه ، ويقطع الطريق وسط اهوال الطبيعة الغاضبة ، فيناضل ، الا ان العواصف تهزمه ، فيموت متجمدا ، وهو يهذي : « انني زوجتك ...» « عبارة من رسالة آعزي له » .

ان مقران ـ هذه الشخصية الغريبة ـ يعيش طيلة حياته سلبيا ، وعندما يتخذ موقفا ايجابيا يصر عليه اصرارا لاواعيا الى ان يقضي عليه في النهاية . كان مقران حتى في موقفه هذا غامضا ، رغم خطورة الطريق وامكانه تاجيل ذهابه لقريته .

ان معمري حاول ان يقدم لنا ، من خلال شخصية مقـران ، نموذجـا للانسان الغامض القلق السلبي ، هذا الانسان الذي بلدت حسه الهزات كالحرب ، وبلبلت كيانه مرحلة الانتقال التي يجتازها الشاب الجزائـري المتعلم ، في مجتمع الفلاحين المتخلف . فهو يخرج من بيئة بسيطة ، الى اكتساب ثقافة في مدارس فرنسية ، وعلى مدرسين فرنسيين ، يلقنونه افكارا ومفاهيم متناقضة مع بيئته القروية ، بعيدة عنها كل البعـد . ويقف في حيرة عند مفترق الطرق لايدري ايها يسلك ، فيتبلد حسه ، ثم يقع فريسة للسلبية واللامبالاة . ونجد تشابها بين مواقف شخصيات معمري ، ومواقف شخصيات بعض الكتاب الوجوديين الفرنسيين . ونهاية مقران تذكرنا ، بنهاية شخصيات كامو التي تختارها بعناد ، قد يكـون فيه هلاكها ، الا ان هذا الاختيار في المنطق الوجودي ، اكتشاف لوجودها،

ـ التتمة على الصفحة ٧٥ ـ

المهزومون

ماضر لو تفتق المجهول عن ملاذ
يحضننا في دفئة المجبول من قلوب الامهات
يضمنا يومين في سبات
فنحن وافدون من جزائر الارق
احداقنا كرات فحم تدلهم في الغسق
وفي انسانها شؤبوب شوق يحترق
وينضح الدموع والعرق
يبحث ، ماينفك ، في غياهب الافق
عن ملجأ نريح فيه عمرنا القلق
فنحن ههنا يقيئنا الصقيع والضجر
مزقنا العذاب والسهـــر
نريد نستقر !... نريد نستقر !
ماضر يافيافي الفراغ والارق
ان تمنحي قبيل موعد الطوفان والغرق
لمدلجين ضائعين في الغسق
اغفاءة قصيرة في زورقين هاجعين
ننام فيهما يومين واحدين
فنحن ساهدون : « منذ » ؟..
لانستطيع ان نحدد الزمان
يانوم ! يانسيان !
لو تحضنا رؤوسنا التي تهدم الزمان
في كهوفها المنهارة ـ البنيان !

٢

حلقات دخان تتخلق عبر محال
لا شيء بها يفضي لمآل ..
سحب ، صمت ، وزوال
ووراء الابواب الفولاذيات الاقفال
صـوت مبحوح
أجهده اعياء الترحـال
صـوت مجـروح
مازال صداه الخافت ينبس خلف الجدران
مـازال ينـوح :
ـ ياروح الخلق القدسيه
مديني بخيـال
يشرب كلماتي وهج الشمس الشرقيه
أو حمى البعث الغيبيه
كي أجدل من هذي السدم العشوائيه
مزمورا من روحانية « بوذا » الهنديه
كأغانـي « طاغـور »
أمنحه قربانـا للنـور
عل الشمس تعـود الينـا
ويهـل النـور
... ويقهقه صوت الظلمة في الصمت :
ـ فات الفوت !..
وترجع اسوار الوحشة والموت
فات الفوات !..

الطيب الشريف

مولـود معمـري

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

وتحقيق الانسان لوجوده ، او اكتشافه لذاته لايقاس بالمعيار الزمني ،وانما يثمن بقيمته المضمونية ، ولو كانت هذه القيمة تستغرق دقيقة واحدة مـن الزمن .

ومواقف مقران السلبية ، لاتمنعنا من النظر بعين الاعتبار لبعـض مواقفه الانسانية التاثرية . فعندما وبخت امه الناقمة ، آعزي ، واتهمتها بتهمة هي بريئة منها ، لم يثر مقران ولم يضربها او يطردها ، كما سيفعل كثير من الرجال لو كانوا مكانه ، وانما طلب منها ، ان توضح له سبب غضب امه عليها ، ثم راح يهدىء من روعها : « وتالمت كثيرا من اجـل تهدئتي لارتجافها ، حملتها بين ذراعي ، وهدهدتها كما يهدهد طفل صغير ثم رايت أهدابها تسبل شيئا فشيئا ، لكن ، لم يغمض لي جفن طـوال الليـل » .

ومن مواقف مقران الانسانية ، ذلك التاثر العميق ، الذي أبـــداه ازاء مرض راعيهم « موح » ، ثم ازاء موته ، الا ان هذه المواقف لاتنقص من سلبيته وان كانت تدل على طيبة نفسه .

والشخصية الثانية ، التي ركز عليها المؤلف في الرواية ، بعد مقران هي شخصية مناش ، ويخصص لها جزءا هاما من الرواية .

ومناش وان كان واضحا بالنسبة لمقران ، الا انه اشد تعقيدا وصراحة منه . فهو يكره « دافدا » كرها شديدا بدون سبب : « كان بدل ان يأتي معنا الى بيت دافدا ، يحمل خيزانته الرقيقة ، ويذهب الى الطريـــق حيث يسير وحده مسافة كيلو مترات » (ص ١٢) . وفي يوم يـــزور مناش دافدا ، وما ان يرى شعرها الجميل ، حتى ينقلب كرهه لهـا الى حب عنيف ، وشعاره قول فيلسوف صيني : « يريد كل منا الاخـــر فيعانقه ، ويمله فيكرهه » (ص ٢٢) .

وفي الجندية يعمل باجهاد ، مما جعل الغير ينعته بالاخلاص فـــي العمل . الا ان مقران الذي يعرفه يقول عنه : « ادرك جيدا ، ان سببـا اخر يدفع مناش الى الانطلاق بضراوة نحو القيام باعمال شاقة وتافهـة انه رغبته في ان يسقط مساء في نوم ساحق ، ويبعد عنـه كـل شبـح يترك عينيه مفتوحتين ، مدة طويلة ، قبل ان يأخذه النعاس » (ص٦١). وقلق مناش النفسي ، واضطرابه الوجداني ، هو الذي دفعه الى علاقته الشاذة مع موح ، فهو يصرح لمقران انه يحمل لصاحبه عاطفة قوية ولكنها افلاطونية ، ثم يبتعد عنه عندما يعلم انه متزوج ، وهو يتعاطى المخدرات ايضـــا ...

ويموت مقران صديقه الحميم ، فينقطع الخيط الذي كان يربطـه بالحياة ، ويزداد ياسه وتذمره : « فمنذ موت مقران ، وعلامات الانهـاك بادية عليه ، كان يحس بفراغ كبير في ذهنه ، ونفور شديد من كـــل شيء .. » (ص ٢٠٥) ثم يلتقي بدافدا ـ الانسانة التي وهبها حبه ـ في بيت ارملة مقران ،ويكتشف حبها له ، ويغيبان لحظة في عنـــاق جنوني ، وقبلات تبللها الدموع الساخنة .

ولم يجد اكتشاف مناش لحب دافدا مع سوداويته ، ويأسه ونفـوره من الحياة ، وتنتهي الرواية بعودته الى الجندية ، وكان اخر مايودع قبر مقران : « وداعا ياصديقي ، الى ذلك اليوم القريب بل الاكيد ... ذلك اليوم الذي ستجد فيه روحي روحك ، وروح آعزي ، وايدير وموح ، لكي نعيد تأسيس تاعساست ، في عالم خال من الالم والعقبات . الـــى اللقـــاء .. .مقران »

الا ان هذا الشخص المعقد المنحرف المريض له جوانب نبيلة فـــي شخصيته ، فهو وفي للصداقة ، الى درجة التقديس ، والوف ومخلص لكل شيء ، حتى لكلبه وعصاه ويتوفق الكاتب في الدلالة الايحائيـــة العميقة ، التي يعبر عنها الكلب والعصا الملازما لمناش .

والشخصية الثالثة ، هي شخصية ابراهيم ، فابراهيم ، هو النموذج الذي يعبر عن معظم الناس في الجزائر . كان يملك محلا للبقالة فـــي « ندرومة » ثم تزوج من كو ، وصفى تجارته ، وجاء ليعيش في قريتـــه تازغا ، وانفق مايملك على زوجته وأمه العجوز ، وأطفاله . كان يعمـــل طيلة يومه عملا شاقا في مقابل خمسين فرنكا . وحتى هذا المبلغ القليل يذهب قسط كبير منه في البيض والدجاج واللحم ، التي تقدم هدايـا للرئيس ، حتى لايفصله عن عمله ، وتشتد به الحاجة ، ويضطر الـــى الاستدانة ... من شقيق الرئيس المرابي بفائدة قدرها ٣٠ ٪ ثم يحـرم اخيرا من هذا العمل : « فهذه الخمسون فرنكا التي كانت تجمع مـــن خلال المذلة ، والحنق المكبوت ، وتقويس ظهره ، وتشنج عضلاته ، كانت تتيح للكل ، ان يشعروا بأمعائهم وهي تعصر على خليط خشن من قليـل من الدقيق ، وكثير من النخالة . وكيف يكون مصيرهم بعد ان نزعـت منهم هذه الجراية » (ص ١٤٢) .

ويأتي الرئيس ، يطالب بدين اخيه ، وعندما لم يجد شيئا عنـــده يعرض عليه ، ان يوقع على سند يرهن فيه ارضه وزيتوناته القليلة ، فـي مقابل الدين . واذا لم يسدد هذه الديون قبل موعد محدد فستضيع منه املاكه . ويوقع ابراهيم على العقد . ويعبر الكاتب عن حب الفـــلاح لحقله وشجرته ، على لسان ام ابراهيم : « وتتكلم العجوز لثماس ، عـن كل زيتونة على حدة ، كما تتكلم عن مالحا وكلثومة ، او عن احدى هـذه العجائز اللائي لازمنها منذ الصغر ، انها تعرف كل شجرة ، وهي تتكلـم عن تلك الشجرة ـ القريبة من شجرة الفرو ـ التي قضت احـــدى العاملات يوما كاملا ، وهي تجمع زيتونها ، دون ان تتمكن من جمعه ، ثم جاءت هي « تيتم » فيما بعد فلم تتمكن من جمع اكثر من الثلث ، فصاحت بملل : يابنت ان زيتون هذه الشجرة ، لايريد ان ينتهي . وفي السنـة التالية انتهى ، لقد انقص الثلج والريح والدود انتاجها الى النصف ،لان تيتم رمتها بالعين . » (ص ٢٤٢) . ثم يصمم ابراهيم على الهجرة الى الجنوب حيث مناجم الفحم ،ليعمل هناك ويجمع مايتمكن بواسطته مـــن تسديد الديون واسترجاع املاكه من المرابي .

ان ابراهيم نموذج للفلاح الفقير الذي يفقد كل شيء ، سوى شرفه ومثله ، ورجولته ، فحدس ابراهيم الفقير يدفعه الى الاستمرار فـــي تعليم ابنه ، حتى لاتتكرر مأساته في ذريته مرة اخرى : « وصمم ابراهيم على ان يستمر المولود ـ ابنه الاكبر ـ في تعليمه ، كفاه هو أمية ، حتى اذا ماتعلم امكن له ان يجد لعيشه مخرجا في المدن ، ويدافع عن نفسه ضد العمدة ، ومحصل الضرائب ، وضد كل رؤساء الخليقة ، ضد كـل الذين يشددون عليه الخناق . كفاه حالته هو ـ ابراهيم ـ العاجزة ،عن القيام بأية حركة ضدهم . » (ص ٢٤٥) . وعندما يعرض عليه رابـح قتل او لحاج زوج كلثومة ، مقابل مبلغ كبير من المال ، يشده من خناقـه يريد قتله ، وهو يقول له : « يهودي ، ابن الارملة ... »

ان شخصية ابراهيم في الرواية هي القبس الذي يشع بالايجابيـة والكفاح في سبيل حياة افضل ، وبالصبر والنبل . هي النور الـــذي

يضيء من خلال الظلام الدامس والغموض ، والتعقيد والسوداوية المخيمة على شخصية بطل الرواية وصديقه مناش .

ثم تاتي بعد ذلك شخصيتا دافدا وتامعزوزت ، هاتان القرويتـــان الطيبتان اللتان تلعبان دورا هاما في حيـاة القرية ، وتقدمان بطيبـة نفسيهما وكرمهما وحدبهما على البؤساء ، النموذجين الصادقي التعبير عن الفلاحين في الجزائر .

فدافدا ، تلك العاقر الشابة ، الجميلة زوجة آكلي العجوز الثري ، قدمها الكاتب ، كملاذ تلجأ اليه « كو » زوجة ابراهيم في بداية الرواية، وكو وتامعزوزت ـ ارملة مقران ـ في اخرها . تـزور يـوما تامعزوزت فتجد هناك كو ، وتتاثر لبؤسها : « وضمت الى وجهها بشدة وجه كو ، وهي تذوب وتقول : كو .. عزيزتي المسكينة كو . وبكت الاثنتان طويلا » (١٧١) . وهي كثيرا ما تلح على زوجها الثري ، وتدفعه الى مد يد المساعدة الى ابراهيم ، وابنائه وزوجته ، الـذين يقضـون الايـام دون طعام . وعندما تدور الدوائر على صديقتها تامعزوزت ، ارملة مقران ، وتمرض ، ترسل دافدا مناش لاستدعاء طبيبين من العاصمة لعيادتها على حسابها . ويحضر الطبيبان ، وتشترى من كيسها الدواء ، وتبقى اياما ، تقوم بتمريضها ، تسهر الليل وتقوم النهار ، حتى تشفى صديقتهـــا ، فتتجلى اسارير وجهها بالسرور ، وهي كذلك صديقتها كما تدلل الام وحيدتها .

ودافدا هذه الانسانة المتفانية في خدمة الاخرين ، العطوفة علـى المساكين ، الوفية للصداقة والجوار ، غير سعيدة في حياتها : لا اولاد ، ولا زوج تحبه ، الناس لا يحبونها ، وانما يشتهونها اشتهاء . ويدفعهـا شعور الانثى التي تحترم نفسها ، الى ان تقول لتامعزوزت : « لقـد احسست احيانا انني في حاجة الى انسان يحبني ، من اجل ذاتي ، لكنهم كلهم يشتهونني اكثر مما يحبونني »

وحتى ذلك الشاب الذي تحبه تضطرها التقاليد ، الى ان تخفـي عنه عاطفتها ، فترد عليه عندما يعاتبها على كتمانها لهذا الحب : « هـل نسيت يا مناش وضع المراة عندنا ، فليس لها الحق في الثرثرة مع رجل على انفراد ... ليس لها حق ان تنتظر حتى في الركن الخفي مـن قلبها ، شخصا اخر غير زوجها ، هي لا تستطيع ان تذهب لتبحث فـي الساحة ، عن ذلك الذي يبيت يعد النجوم ، وهو يفكر فيها ، في الوقت الذي تستهلك فتيلة مصباحها ، وهي تفكر فيه ! وتستحم بكل انواع العطور التي تروق له . » (ص ٢٣٤)

وهي تستثير شفقتنا ، في لحظة ضعفها وانهيارها امام مناش ، عند راس تامعزوزت المريضة . فهي تقضي طوال حياتها مخلصة لزوجها العجوز ، الذي يبيت طوال الليل يشخر الى جانبها ، وهي تحترق شوقا الى الشاب الذي تحبه : « كل الليالي التي قضيتها انت مريضا ، سهرتها انا ، والى جانبي شخير آكلين المستمر المثير .. وفي ليلة صحت كالمسكونة .. » (ص ٢٣٧) . وهي تتفانى في حب هذا الشاب فـي الخفاء : « زرت سيدي يوسف ، وشيفو ، وطلبت منهما ان يشفياك ، انا التي لا تنتظر شيئا من الاولياء . وارسلت بالصدقات ، وبالنذور الى كل من اعرف ، وبكيت على الامك ، انا التي تجهل الدموع . وكنت على استعداد للتسول من اجلك » (ص ٢٣٧)

اما تامعزوزت (آعزي) فهي فتاة ساذجة ، طيبة ، تحب زوجهـــا وتخلص له ولذكراه ، فترفض ان تتزوج مدور بعده . فهي تبكـــي ليلا نهارا ، وتتردد على اضرحة المشائخ ، تطلب من الله ان يرزقهـــا بالاولاد ، حتى لا تخسر اعز ما تملك هو زوجها : « عبد الرحمن ، تركتني عارية امام ارادة الله ، انقذني ، امنحني ابنا وانا اعطيه اسمك . عبد الرحمن ! انقذ بيتي من الدمار ، وثديي من الجدب ، وسارجع لانحر على شرفك ثورا . ايها الشفوق عبد الرحمن . »

وهي ترى صديقتها كو ينعم الله عليها بخمسة اولاد ، في الوقـت الذي تشتاق هي فيه الى ولد واحد ، وبدل ان تحسدها ، تعطف عليها : « وهزت شفقة كبيرة آعزي ، على هذه الحزمة التي كانت رفيقـة صباها ، واحيانا رفيقة احلامها..لكن كو الجميلة هنا..كو « تاعساست» .. كو التي عندها الان ثلاثة اولاد ، بينما لا تملك آعزي ولا واحدا :

ـ كو ها هي الخزانة التي كنت تختلسين منها المربى مـــن حماتـــي اتذكرين ذلك ؟ (ص ١٠٩)

وهي لا تبخل على صديقتها البائسة بما تملك : « ثم قامت آعزي ، وذهبت الى صندوق عرسها فاخذت منه خليطا من الملابس : فساتين وشح ، مآزر ، كنزات صوف ، ثم دستها بين ذراعي كو ، اما الشعير فقررت ان ترسله لها على البغل في المساء ، مع راعينا الصغير »(ص١١٧)

وكو مثال للزوجة الوفية المخلصة ، المكافحة في سبيل زوجها وابنائها الذين تحبهم ، والكاتب لم يسلط عليها الاضواء كما سلطها على زوجهـــا وصديقتيها ، ويقدمها لنا شبحا حطمه الانجاب ، وسوء التغذية . لكن الكاتب الذي قسا عليها قسوة كبيرة ، ينجح في ان .. يجعلنا نشفق عليها اكثر من اية شخصية اخرى .

اما الشخصيتان اللتان كانتا بمثابة النشاز ، في تناغم الشخصيـات الروائية ، فانهما شخصيتا مدور وأوعلى .

ومدور يعتبر « نقطة الضعف في المجموعة » كما يصفه مقران . فهـو مدرس قرأ كثيرا من الكتب ، وتردد على عدد من المدارس ، دون ان ينجح في هضم ما قرأ . انه يمثل عددا كبيرا من الشبان المتعلمين في المغرب العربي ، هؤلاء الشبان الذين ظهروا بعد الحرب ، وعجزوا عن التوفيق بين آرائهم المستوردة الملائمة لمجتمع صناعي متقدم ، وبين حاجات مجتمع متخلف ينهشه الاستغلال ، وتتقاذفه الامية والتأخر . والازمة الجذرية لهؤلاء الشبان ، هي الطلاق القاطع الموجود بين المدرسة ولغتها وبـين البيت ولغته . هذه الازمة التي يعاني الكاتب نفسه منها الكثير . فالمتعلم الجزائري باللغة الفرنسية يزداد انفصاله عن البيت كلمـا ازدادت علاقته متانة بالمدرسة ، او بالثقافة . لكن يجب علينا ان نفرق بين علاقة هذا المثقف بالوطنية وعلاقته بالمجتمع ، فاخلاصه لوطنه امر لا يجادل فيه اثنان ، الا ان كلامنا منصب على مدى استطاعة هذا المثقف على تفهم المجتمع ، فالوطنية لا تحتاج الى فلسفة ، او نوع معين مـن الثقافة لهضمها ، وانما نعني ادراك المجتمع ، وتفهم حاجاته ، وخاصة الثقافية منها ، لانها اكثر علاقة بالانسان .

فالمثقف او الفنان الذي لا يملك الوسائل التي تربطه بالتراث القومي، لا ينجح نجاحا كاملا في التعبير عن مجتمعه ، وكما قيل : فاقد الشيء لا يعطيه » .

ومدور في رأيي ، نموذج لطبقة كبيرة من المتعلمين منتشرة في المغرب العربي باجزائه الثلاثة ، تجسم مأساة الانسان المثقف ، الذي خلفته عملية « التمدين الفرنسي » في هذه البلدان ، وقد نجح الكاتب فـي ابراز بعض الجوانب السلبية في شخصية مدور : « لقد كان مدور المبشر بكل الكلمات الغامضة : « الحضارة ، التقدم ، الافكار الحديثة » (ص٢٦)

وعندما يتحمس مدور لهذه الاراء يعلق على تحمسه مقران : « لا احد

يستمع اليه ، وكيف يستمع اليه ناس تشغل افكارهم مشكلة عدم التأكد من وجود ما يكفيهم لسد الرمق ، الى اخر الاسبوع » ص ٢٠٤ . وعدم هضم مدور لمطالعاته جعله يفقد في الحرب حتى هذه الشكليات ، عن الحضارة : « والذي عاشه في الحرب ، هدم بالجملة كل العلوم التي استقاها من الكتب ، وكل الافكار التي لم يهضمها في يوم ما » (ص ٢٠٣)

يتبين لنا مما سبق ان شخصيات معمري يمكن وضعها في مجموعتين : مجموعة النماذج المتعلمة التي تعيش مذبذبة بين التقدم والجمود ، بين الافكار الحديثة ، والتقاليد والعادات البالية ، وهي نماذج معقدة غامضة في علاقاتها مع الناس ، متمردة على اوضاعها ، وان كان تمردها سلبيا ، لانها غير مستقرة على فلسفة ثابتة : كمدور ومقران ومناش . ونماذج اخرى بسيطة تمثل الناس البسطاء ، وهي راضية قنوعة بمصيرها، بسيطة واضحة في علاقاتها ، متعاونة فيما بينها . الا ان براعة معمري ، التمكن من عاداته ، تكمن في مقدرته على فرض مايريد ، وهو ان نشفق على هؤلاء واولئك ، ونحبهم ونحترم وجودهم .

لكن معمري هذا الفنان الكبير ، بقدر ما اثار مشاكل حساسة في المجتمع الجزائري ، بقدر ما تجاهل مشاكل اخرى ذات اهمية كبرى في تاريخ الجزائر ، وورث افكارا كثيرة عن الحضور الفرنسي ـ الاستعماري . فالسبب الجذري للآفات التي تنهش من كيان المجتمع الجزائري ـ التي اشار اليها ـ لا يوضحه لنا . فهو يشير مثلا (يشيرفقط) « الى مشكلة ارتفاع عدد المواليد والموتى بين الاطفال ـ مشكلة كل بلد متخلف ـ : « يولد باستمرار عدد كبير من الاطفال ، ولكن معظمهم من البنات ، كما يوجد عدد كبير من الموتى ، الا ان الاطفال الذكور هم الذين يموتون » (ص ٣٣)

وهو يشير الى ثقل الحياة التي لم تقو كواهل الادميين على حملها ، ويجيد في التعبير عنها « الخطر لا يكمن هنا ، لكنه يكمن في هذا الحزن الذي تنضح به الجدران : هذه الاحمرة الطويلة التي تنزل منحدر (تاكورافت) وتلك الابقار الناعسة وهذه النساء المحملة ، التي تبدو منهمكة بدون سرور ، في اعمال شاقة لاطعم لها ، والتي تكد طوال الوقت لانهائها : فكأن هذه الكائنات تواجه امام اعينها الابدية ، فهي لا تسرع . ومن يرى هؤلاء النساء والرجال ، يحكم عليهم من خلال لا مبالاتهم بالسرور ، انهم مخلوقات لا تنتظر شيئا على الاطلاق » (ص٣٤)

وهو يشير الى هجرة سكان تازغا الى فرنسا بسبب فقر الارض .. وهو يشير الى ذلك الشاب الذي وجد ميتا على قارعة الطريق ، ففتح الطبيب بطنه واخرج منها كمية منها كبيرة من العشب .. . وهو يشير الى القرية التي يوجد اقرب طبيب لديها على بعد ثمانية عشر كيلو مترا ، حتى هذا الطبيب لم تطأ قدمه القرية طيلة خمسة شهور .

الا ان هذه الاشارات الموحية تفقد عمقها ، ووضوحها لدى القارىء عندما لا يعلم ، ان العامل الذي يترك قريته الى فرنسا طلبا للرزق ، لم يفعل ذلك لان بلاده فقيرة ، وانما لان ثروات هذه البلاد الهائلة تتجمع في جيوب الكولون (١) الفرنسيين ، وعلى موائد افراد العائلات الفرنسية بفرنسا .. وان ازدياد عدد المواليد ، وانتشار الوفيات بينهم يرجع الى صميم البناء البشري للمجتمعات المتخلفة الرازحة تحت نير الاستعمار .. وان هذا الطبيب ، الذي ينعدم وجوده بين الاف القرى الجزائرية ، يوجد بوفرة في المدن والقرى التي توجد بها العائلات الفرنسية ، وان انتشار هذا الحزن ، وتبلد الحس تحت قساوة الحياة ، الذي يخيم على قرية من قرى جبال زواوة ، ينعدم في الاحياء والقرى الاوروبية ، بل وتحل محله السعادة والصحة والسرور المترف .. وهؤلاء الذين يستغلون ابراهيم اختارهم الكاتب من بين الجزائريين كرئيس العمل ، والعمدة ، مع انهم ما هم الا ادوات بسيطة في يد المستغل الاكبر وهو « الكولون » ، المجسم لبشاعة الاستعمار الفرنسي . ومعمري اول من يعرف انه ليس في الجزائر طبقة مستغلة ، واخرى تعاني استغلالها من المواطنين ، وانما يوجد جهاز استعماري كامل للاستغلال ، وشعب بمختلف طبقاته يعاني ويلات هذا الاستغلال .

(١) لم نر احسن من هذه الكلمة كتسمية للاقطاعي الفرنسي بالجزائر

وكما يتجنب معمري الادارة الفرنسية ، يتحاشى التعرض للحركات الوطنية ، فقبل سنوات من بداية احداث الرواية ـ التي تبدأ مع بداية الحرب العالمية الثانية ـ بدأت حركات ثورية واصلاحية كحركة « حزب الشعب الجزائري » التي اخرجت لنا الطليعة الثورية لثورتنا العظيمة . وكالحركة الاصلاحية التي عمقت احساس الجزائري بعروبته، وطهرت الدين من الخرافات التي كان يستغلها الاستعمار ، وربطت مناطق الجزائر التي حرص الاستعمار على عزل بعضها عن بعض ـ بلغة الضاد في مدارسها المنتشرة في كل انحاء البلاد وهي « جمعية العلماء » . ومنها حركة المثقفين الممثلين للطبقة المتوسطة وهي « حزب البيان المعتدل» ولم يتجاهل معمري كل هذه الحركات فحسب بل أساء الى صميميتها . فاوعلى ذلك الشاب الذي قدمه المؤلف على انه من الذين تمردوا على السلطة ، ورابطوا في الجبال يعدون للثورة ، أبرزه كشخص قاطع للطريق ، بوهيمي ، تافه ، يسخر بندقيته لقتل اولحاج ـ زوج كلثومة ـ الذي رفض القيام به ابراهيم بعنف ـ لانه (أي أوعلى) يرى زوجته فيشتهيها ، ويسيل لعابه لجمالها ولمكافآتها المالية ، التي قررت ان تدفعها لكل من يقوم بتخليصها من زوجها . وهو يحقد على النساء ويصفهم « بانهم كلهم مومسات » في صفحات ١٤٩ و ٢٢١ و ٢٢٣ و ٢٢٤ ، وهو يرى ان قوته وقوة رفاقه في الجبال جاءت لانقاذ القبائل ، حتى لا يصبحوا كالفرنسيين والعرب » (ص ٢٢٤)

يمكن ان يندس مثل هذا النوع من الشبان بين الثوار في بداية الاعداد ـ شان كل ثورة ـ الا ان الاغلبية الساحقة من شبابنا الثوري الاول خرج للجبال ليؤسس الخلايا ، ويقيم شبكة متماسكة من المناطق ويتدرب على استعمال السلاح ، ويقوم بتخزين الاسلحة والذخائر . فلماذا اختار معمري هذا الشاب التافه بالذات ليمثل شباب الطليعة !؟.

عثمان سعدي

التتمة في العدد القادم

صدر حديثا :

عيناك مهرجان ..

ديوان جديد لشاعر « عبقر » :

شفيق المعلوف

دار الاداب بيروت